﴿وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ۝٥٠﴾ [المؤمنون: 50]

❁ مُناسَبَةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمّا اتّخذ بنو إسرائيل عيسى إلهًا وهو بشر أتبع هنا ذكره تعجيبًا من حال المكذبين

كان من أمر بني إسرائيل بعد أن أيّدهم الله تعالى، ونصرهم على عدوّهم، وبيّن لهم طريق الهدى والحقّ بالكتاب، أن اتّخذوا عيسى إلهًا، وهو بشر ممّن خلق الله، فأتبع هنا ذكره تعجيبًا من حال المكذّبين في أنّه وأمّه آية، ثمّ ذكر ممّا يحقّق بشريّتهما أن آواهما الجليل سبحانه إلى ربوة ذات مستقرّ، وماء ظاهر للعين، جارٍ ينتفع به[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَءَاوَيْنَٰهُمَآ﴾: (أوى) أصْلٌ يَدُلُّ على الميلِ، وسمّي منزل الرّجل مأواه، لأنّه المكان الذي يميل إليه فيقيم فيه، يقال: أوى المرء إلى منزله يأوي ومعناه التّجمّع والانضمام[2]، ومنه المأوى ويشمل كلّ مكان يأوي إليه الإنسان أو غيره ليلًا أو نهارًا[3]، ويأتي بمعنى الإنزال فآويته بمعنى أنزلته، ومن أوى إلى الله فقد رجع إليه[4] وأكثر ما ورد في القرآن من الضّمّ المُحْوِج للحماية[5]، ومعنى ﴿وَءَاوَيْنَٰهُمَآ﴾ في الآية، أي: ضممناهما إلى ربوة فصارا إليها، من قولهم: أوى فلان إلى موضعه، فهو يأوي إليه إذا صار إليه[6].

2) ﴿رَبْوَةٍ﴾: (ربو) من ربا يربو، ومعناه الزّيادة، والرّابية

(1) البقاعي، نظم الدرر: 13/ 148 - 149.
(2) الفراهيدي، العين: (أوي).
(3) الجوهري، الصحاح: (اوا).
(4) العسكري، الوجوه والنظائر، وابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (أوى).
(5) محمّد جبل، المعجم الاشتِقاقيُّ المؤصَّل: (أوو - أوى).
(6) ابن جرير، جامع البيان: 19/ 36.

والرّبوة كلّ ما ارتفع من الأرض، وكلّ ما كان عاليًا، وإذا أربى عليه فقد أشرف عليه، وكلّ ما ينمو يسمّى ربًا كالزّرع[1]، ورَبَتِ الأرضُ إذا زادت وانتفخت، وهو نموّ الشّيء مستغلظًا مرتفعًا[2]، ومعنى ﴿رَبْوَةٍ﴾ في الآية: المكانُ المرتفعُ من الأرض على اختلاف في موضعها بين دمشق وفلسطين[3].

3) ﴿قَرَارٍ﴾: (قرّ) أصْلانِ صَحيحانِ، يَدُلُّ أحَدُهُما عَلَى بَرْدٍ، والآخَرُ عَلَى تَمَكُّنٍ، اسم مصدر للفعل قرّ، وجذره اللغويّ (قرّ)، والقرار هو المستقرّ من الأرض، والقارّ بمعنى السّاكن المتمكّن المستقرّ، والأصل في معنى هذه اللفظة أن يدلّ على التّمكّن، والقارّ والمستقرّ يدلّ على الثّبوت الجامد، والاستقرار نقيض التّحوّل، ومعناه المحوريّ الثّبات والتّمسّك والتّمكّن والاستقرار[4]، ووصف الرّبوة بأنّها ﴿ذَاتِ قَرَارٍ﴾ وهو "المكان المطمئن الذي يستقرّ فيه الماء، ويقال للرّوضة المنخفضة: القرارة"[5].

4) ﴿وَمَعِينٍ﴾: اسم على وزن مفعول (معيون)، ثمّ حصل فيه إعلال بالحذف، وجذره اللّغويّ (معن)، والماء المعين هو الماء الظّاهر الجاري على الأرض، ومنه مَعَنَ الوادي إذا كثُر ماؤه، والأصل في الميم والعين والنّون دلالته على السّهولة واليسر في الجريان، ومنه أمعنت الأرض بمعنى رويت، ويجوز أن يكون المعين بمعنى (العين) والميم زائدة، والمعن فيه دلالة على السّهولة واليسر؛ فهو الماء الظّاهر العذب الجاري الغزير، وكلّ ذلك دالّ على السّهولة، أمّا المعنى المحوريّ له فهو: تباعد الشّيء، وأن يكون ممتدًّا متغلغلًا كالفرس يتباعد جريًا، وكالماء يتغلغل بين النّبات وأخاديد الأرض[6]، ومعنى وصف الرّبوة بأنّها ذات (مَعينٍ) في الآية، أي: الموصوفة بأنّها ذات ماء جارٍ، أو ذات عيون تجري فيها من: عانَتِ البِركة إذا جرى فيها الماء[7].

(1) الفراهيدي، العين، وابن دريد، جمهرة اللغة، والراغب، المفردات: (ربو).
(2) محمّد جبل، المعجم الاشتِقاقيُّ المؤصَّل: (ربو - ربى).
(3) ابن جزيّ، التّسهيل لعلوم التنزيل: 2/ 52.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، ومحمّد جبل، المعجم الاشتِقاقيُّ المؤصَّل: (قرر).
(5) الهروي، الغريبين في القرآن والحديث: 5/ 1523.
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، ومحمّد جبل، المعجم الاشتِقاقيُّ المؤصَّل: (معن).
(7) السمعاني، تفسير القرآن: 3/ 477.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

جعلنا ابن مريم وأمّـــه حُـجَّـةً وصيّرناهما إلى ربـوة قـارّة ذات ماء جارٍ

يذكر الحقّ ﷻ أنّه جعل ابن مريم وأمّه حجّة واضحة على قومه، وعلى قدرته تعالى على إنشاء الأجسام من غير شيء، ثمّ ضمّهما إلى مكان مرتفع من الأرض في دمشق أو في فلسطين ذي استواء واستقرار وذي ماء جارٍ[1] امتنانًا منه عليهم.

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

معنى الواو ودلالتها في ﴿وَجَعَلْنَا﴾:

نـهـج المـرسـلـين في الـهـدايـة واحدٌ، ومواجهة الكافرين في كلّ الأمـــم واحـــدة وإن تـشـعّـبـت السُّبُل

الواو عاطفة، عطفت على قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾، وفيه دلالة على ارتباط القصة بالقصة السابقة، لبيان أن نهج المرسلين ومواجهة الكافرين لهم واحدة، وإنِ اختلفت السُّبُل والمسالك، فإنّ الحديث في عمومه عن بني إسرائيل، فعيسى ﷺ مرسلٌ إلى بني إسرائيل، وهو آية من آياته، وفي ذلك تتابعُ الآيات القاهرة، وهي حججٌ على هؤلاء القوم، فإن لم يستجيبوا ضوعف لهم العذاب أضعافًا مضاعفة[2].

سرّ التّعبير بالجَعْل دون الإرسال في ﴿وَجَعَلْنَا﴾:

لم تُذكر رسالته لأنّ مـعـجـزة تخليقه دالّة على صدق رسالته

في التّعبير بالجَعْل، والعدول عن ذكر الإرسال في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً﴾؛ إشارةٌ إلى معجزة تكوينه وتخليقه وأنّها آية عظمى في ذاته، دالّة على صدق رسالته؛ فكان الاهتمام بذكرها هنا[3]، وفي جَعْل مريمَ وابنِها ﷺ آيةً تشريفٌ لهما، وتنويهٌ بهما، في أنّ الحقّ ﷻ صيّرهما وسيلة لليقين بعظمته، وقدرته تعالى، ومعجزات أنبيائه؛ فهذا اعتبار حصل فيه تشريف لبعض المخلوقات[4].

(1) ابن جرير، جامع البيان: 19/ 36.
(2) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 9/ 1142.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 66.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 139.

الغرض من تقديم عيسى على أمّه:

هو الأصل فيما ذكـر مـن كـونه آية

قدِّم عيسى على أمّه ﷺ في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً﴾؛ لأنّه الأصل في ذكره هنا من كونه آية، كتقديمها في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَٰهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ۝٩١﴾ [الأنبياء: 91]؛ لأنّها الأصل هناك في نسبة الإحصان والنّفخ[1].

ولَمّا كان عيسى ﷺ موصوفًا بأنّه آيةٌ معجِزةٌ، وكانت مريم ﷺ موصوفة الوصف عينه؛ فهما متساويان فكان تقديم عيسى هنا طلبًا للمساواة في النّصّ، والتماسًا للعدالة فيه؛ فقد قَدَّمَ مريمَ في مناسبة سابقة بقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَٰهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ۝٩١﴾ [الأنبياء: 91]؛ فهما على السّواء في الخيريّة[2]، وأنّ كلًّا منهما آية معجزة.

سرّ العدول عن (عيسى) إلى ﴿ٱبْنَ مَرْيَمَ﴾:

حـقّـق انـتـفـاء الأب عنه وكونَه مـحـمـولًا في البطن مولودًا لا يصلح لرتبة الإلهية

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ﴾ حديث عن رسول الله عيسى ﷺ لكنّه عَدَلَ عن التّصريح باسمه إلى ذكر كنيته، فنسبه إلى أمّه مريم ﷺ من باب التّحقيق؛ فإنّه لا أب له؛ ولأنّه بشرٌ محمول في البطن، ثمّ مولود، ففيه إيذان ببشريّته وأنّه لا يصلح لأن يكون إلهًا[3] كما هو الشّأن في معتقدهم، ولَمّا كان السّياق جاريًا في الحديث عن وجه كونهما آية ومعجزة عبّر بالابن والأمّ دون عيسى ومريم ﷺ[4]؛ لأنّ الآية كانت في إيجاده من غير أب، وولادتها من غير زوج ولا مسيس، فلَمّا ذَكَر فِعْلَ الجَعْل أورد المجعولَ كنيةً بقوله: ﴿ٱبْنَ مَرْيَمَ﴾، وفي هذا العدول إشارةٌ إلى نسبه الصّحيح في أنّه ابن مريم نفيًا لِما ادّعته النّصارى بأنّه ابن الإله، ونفيًا لما رَمَتْه به اليهود بأنّه ابن زنا، لا هذا ولا ذاك بل هو ابن مريم تحقيقًا[5].

(1) إسماعيل حقي، روح البيان: 6/ 86.
(2) الشعراوي، تفسير الشعراوي: 16/ 10051.
(3) الشربيني، السراج المنير: 2/ 581.
(4) القونوي وابن التمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 13/ 183.
(5) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 9/ 1142.

فائدة عطف ﴿وَأُمَّهُۥٓ﴾ عليه:

إدمـاج لتسفيه اليهود فيما رموا به مريم وابنها عليهما السلام

لمّا تحدّث عن معجزة عيسى عليه السلام أردفها بذكر أمّه بقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ﴾، وهو إدماجٌ فائدته تسفيه اليهود برميهم مريم عليها السلام فإنّ الحقّ ﷻ جعله آية لها ولابنها، وهم جعلوه مطعنًا ومغمزًا فيهما[1].

الغرض من حذف ﴿ءَايَةً﴾:

ابـن مـريـم آيـة وأمّه آية فحذف الأولى لـدلالـة الثّانية عليها

إنّ معجزة ابن مريم وأمّه آيتان عظيمتان، فإنّ مريم ولدته من غير مسيس، وعيسى روح الله، وقد تكلّم في المهد، وكان يحيي الموتى، فهذه آية من غير وجه؛ فيكونا آيتين على تقدير: (وجعلنا ابن مريم آية، وأمّه آية)، فحذف الآية الأولى لدلالة الثّانية عليها[2] وفي الحذف إيجاز واختصار، كما أن فيه إلاحةً إلى أنّ المعجزتين تساويتا في القوّة حتى إنّهما معجزةٌ واحدةٌ.

الغرض من تنكير المفعول به ﴿ءَايَةً﴾ وسرّ التعبير به مفردًا:

الآيـة عظيمة، ولم تتمّ معجزةُ عيسى عليه السلام إلّا بضميمة أمّه

أوردها النظم الكريم نكرةً؛ لإرادة تعظيمها؛ فهي آية مشتملة على آيات كثيرة، ولأنّ مجموعها دالٌّ على صدق عيسى عليه السلام فيما أرسل به؛ فقد جعل الحقّ سبحانه مجموعها آية عظيمة على صدقه[3].

وفي ذكر لفظ ﴿ءَايَةً﴾ مفردة دلالةٌ على الجنس والعموم، في إشارةٍ إلى أنّ الآية بمعنى القدرة على خلق الإنسان وإيجاده في جميع الاعتبارات؛ بأن يكون الإنسان مخلوقًا من غير ذكر وأنثى؛ وهو آدم عليه السلام، ومن ذَكَرٍ من غير أنثى؛ وهي حوّاء عليها السلام، ومن أنثى بلا ذكر؛ وهو عيسى عليه السلام، – في الآية محلّ الاستشهاد – ، ومن الزّوجين الذكر والأنثى، وهو ما ينطبق على بقية النّاس[4].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 66.
(2) الزمخشري، الكشاف: 3/ 189.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 67.
(4) الشربيني، السراج المنير: 2/ 581.

كما أنّه وصفهما بالآية بإفراد اللّفظ؛ لأنّ عيسى ﷺ لم يكن دالًّا على الآية إلّا بضميمة أمّه، وولادته منها من دون أب، ومريم ﷺ لم تكن آية إلّا بميلاد عيسى، فهما الاثنان آية معجزة بضميمة الواحد إلى الآخر[1].

سرّ تخصيص عيسى وأمّه بالذّكر:

خروجهما عن المعتاد في الخلق من غير أب ولا زوج

خصّ في هذه الآية عيسى وأمّه ﷺ بالذّكر في كونهما آية، مع أنّ البشر جميعًا في معنى الآية بخلقهم من نطفة ثمّ علقة ثمّ مضغة إلى ما ينتهي بهذا الكائن؛ فيصير إنسانًا سويًّا على أفضل خلقة؛ فالأعجوبة خلق الإنسان من النّطفة، لكنّه لَمّا كان خلقهما خارجًا عن المعتاد في الخلق من دون أب وزوج خصّهما بالذّكر هنا[2].

إيثار عطف الفعل ﴿وَءَاوَيْنَٰهُمَآ﴾ مادّةً وصيغةً:

تنويه بهما إذ جعلهما الله محلّ عنايته ومظهر قدرته ولطفه

معنى الإيواء أن تجعل غيرك آويًا ساكنًا، وعطف فعل الإيواء ﴿وَءَاوَيْنَٰهُمَآ﴾ على فعل الجعل تنويهًا بهما في أنّ الحقّ ﷻ جعلهما محلّ عنايته ورعايته، ومظهر قدرته وترفّقه ولطفه[3].

سرّ التعبير بالاستعارة في لفظ الإيواء:

إيواءٌ كإيواء الأب والأمّ لابنهما مستقرًّا ومعاشًا

قوله تعالى: ﴿رَبْوَةٍ﴾ استعارة؛ فإنّه "ذكر أنّه آواهما إلى ربوة كما يؤوي الأب والأمّ الولد إلى مكان يتعيّش به؛ إذ الرّبوة هي مكان التّعيّش فيه"[4]، وزاد عليه وصفها بالقرار والمعين، كما يكون الوالدان مستقرًّا للولد يمدّانه بالقوت والماء، وما يصلح حياته ومعاشه.

سرّ التقييد بالجارّ والمجرور ﴿إِلَىٰ رَبْوَةٍ﴾:

قيّد الفعل بالجارّ المجرور بقوله: ﴿إِلَىٰ رَبْوَةٍ﴾ إيحاءً إلى مريم

(1) الشعراوي، تفسير الشعراوي: 2/ 1277.
(2) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 7/ 471.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 67.
(4) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 7/ 472.

عند اقتراب مخاضها أن تنفرد بربوة منعزلة عن النّاس؛ لِتلدَ عيسى بعيدًا عن النّاس، وحفظًا له من أذاهم[1].

سرّ وصف الرّبوة بأنّها ﴿ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾:

المبالغة في مدحه لاشتماله على صنوف الرّاحة

وصف الرّبوة بأنّها ﴿ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾؛ لأنّه وصفٌ جامعٌ لأسباب التّنزّه والتّطهّر وطيب المكان من انبساطها، واشتمالها على الزّروع والثّمار؛ فلمّا أراد المبالغة بمدحها وصفها بذلك الوصف الجامع لصنوف الرّاحة والسّرور[2]، ومعنى القرار: المكث في المكان؛ فهو وصف دالّ على صلاحية الرّبوة لأن تكون قرارًا ومستقرًّا، فجعل إضافة الرّبوة إلى ما فيها من معنى متحصّل لأدنى ملابسة؛ بما احتوت من النّخيل المثمر، فتستظلّ به غير محتاجة إلى طلب القوت، وزاد على ذلك أن أجرى فيها الماء المعين الظّاهر الجاري على وجه الأرض[3].

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الإيواء والإسكان والإنزال:

الإنزال انحطاط والإسكان دائم وإيواء عيسى ومريم إلى الرّبوة أمر مؤقّت

قوله: ﴿وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ﴾، استعمل مفردة (الإيواء)، ولم يستعمل مفردة (الإسكان)، ولا (الإنزال)؛ لأنّ الإيواء ضمّ شيء إلى شيء مع ضعفٍ ما كالنّصرة والحياطة[4] بما يوحي بأنّ الإيواء أمر مؤقّت ليس ثابتًا لازمًا، أمّا الإسكان فهو من (سكن يسكن) إذا ثبت وذهبت حركته، فالسّكون عدم الحركة[5]، وهو معنى يشير بأنّ الإسكان هو توفير المأوى الدائم للإنسان، ولم تكن الرّبوة التي آوت عيسى ومريم سكنًا دائمًا لهما، أمّا الإنزال ومنه النّزول فهو أن

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 67.
(2) القونوي وابن التمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 13/ 184 - 185.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 67.
(4) محمّد جبل، المعجم الاشتِقاقيُّ المؤصَّل: (أوو - أوى).
(5) الزبيدي، تاج العروس: (سكن).

ينحطّ شيء من علو[1] حقيقة أو معنى فلا يتناسب مع الرّبوة الدّالة على العلو والارتفاع.

الرّبوة والمرتفَع:

المرتفع ما علا مطلقًا، والرّبوة ما علا مع اشتمالها على الماء والخضرة

ولمّا كانت الرّبوة مشتقّة من (ربا يربو)، وهي دالّة على النّماء والزّيادة؛ عبّر بها عن المكان الذي آوى فيه عيسى وأمّه مريم عليهما السلام بقوله تعالى: ﴿وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ﴾، وزاد على ذلك بوصفها أنّها ﴿ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾ ليؤكّد هذا المعنى، وهو اشتمالها على الماء والخضرة[2] ممّا بهما حاجةٌ شديدةٌ إليه، أمّا مفردة المرتفع فهي لفظٌ عامٌّ يطلق على كلّ ما علا وبرز من الأرض.

(1) الراغب، المفردات: (نزل).

(2) العسكري، الوجوه والنظائر، ص: 86.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الخامس والثلاثون،
سورة الحَجّ من الآية 51 إلى سورة المؤمنون الآية 63
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الخامس والثلاثون، سورة الحَجّ من الآية 51 إلى سورة المؤمنون الآية 63
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 35 ، 804 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-732-77-8
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 35 : المجلد الخامس والثلاثون، سورة الحَجّ من الآية 51 إلى سورة المؤمنون الآية 63.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-732-77-8
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-7984898 بتاريخ 2024/11/14م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»